تعالق الأسلوب والحجاج

الأستاذة: محفوظي سليمة

جامعة سوق اهراس-الجزائر

بعد التطوّر الذّي عرفته الدّراسات اللّسانية و الّذي تجلّى في نشأة الدّراسات اللّسانية التّداولية، اتّضح أنّ عزل اللّغة عن الواقع لم يَعُدْ له اليوم ضرورة علمية، فانتقل الاهتمام في الدّراسات اللّسانية من الوصف إلى أساليب الاستعمال ومقاماته، وقد تنبّه بعض الباحثين إلى وظيفة أخرى تقوم بها اللغة عند التّبليغ والتّواصل هي الوظيفة الحجاجية، وكما هو معلوم؛ فإنّ الحجاج يقوم على دراسة تقنيات الخطاب التّي تؤدّي بالذّهن إلى التّسليم بما يعرض عليه من أفكار، وقد ظهرت عدّة نظريات في التّقاليد الغربية تحلّل الكلام باعتباره فعلا حجاجيا، والمتطلّع في الثّقافة العربية الإسلامية يجد دون شك آراء وتصوّرات حول الحجاج وأشكاله سواء عند الأصوليين واللّغويين وعلماء الحديث والنحاة أو في الشعر والخطابة.

Résumé : Après la vague de développement dans les études linguistiques qui se manifeste dans l'émergence des études linguistiques pragmatiques, il s'avère actuellement que l'isolement de langue de la réalité n'est plus une nécessité scientifique. L'intérêt pour les études linguistiques est passé de la description à la recherche de méthodes d'utilisation. Certains chercheurs se sont rendu compte que lors de la déclaration et de la communication la langue peut avoir une autre fonction : c'est la fonction argumentative. Comme on le sait, l'argumentation est basée sur l'étude des techniques du discours qui mènent l'esprit à accepter les idées qui lui sont présentées. Plusieurs théories ont vu le jour dans la tradition occidentale analysant la parole en tant qu'acte argumentatif. Le prospecteur dans la culture arabo-islamique trouve sans doute les points de vue et les perceptions concernant l'argumentation et ses formes à la fois chez les fondamentalistes, les linguistes, les grammairiens et les savants d'El- Hadith ou dans la poésie et l'art oratoire.

يمكن صياغة مشكلة البحث الأساسيّة في العبارة التّاليّة: كيف يمكن تحديد معالم الخطاب الحجاجي في خطبة "الحجاج بن يوسف " لأهل العراق بعد دير الجماجم؟ .

إن الحديث عن البلاغة حديث ذو شجون. ومحاولة الوقوف على معنى دقيق لهذا المفهوم، يجعلنا نتخبط بين مجموعة من التصورات والتوجهات التي حاولت الإمساك به وإلواء عنقه كما دعا إلى ذلك فيرلين. ويبقى للبلاغة معان كبيرة يلخصها لنا تاريخ البلاغة وهي:

المعنى الأول: ذو بعد تداولي حجاجي متصل بنشأة البلاغة في الغرب. يهتم بفن الإقناع في مكوناته وتقنياته: استنباط الحجج ومعالجتها وبثها. وقد ركز بارت في خلاصته المشهورة المركزة من تاريخ البلاغة الغربية على نشأتها في إطار الحجاج من أجل الأرض.(حيث عمل كوراكس وتلاميذه على تعليم الناس تقنيات الدفاع عن الأرض)

المعنى الثاني: البلاغة مجموعة من صور التعبير منفصلة عن نوع الخطاب الذي أستعملت فيه. فهو مرتبط بعملية الاختزال التي تعرضت لها البلاغة عبر تاريخ طويل.

المعنى الثالث: ويتجسد في مجموعة من الصيغ التعبيرية التصويرية التي تفرزها مختلف الأجناس والأنواع والأشكال والنصوص الأدبية.

لقد عاشت البلاغة بهذا المعنى الأول عصوراً حافلة بالأمجاد، قبل أن تتلفظ أنفاسها وتتقاسم تركتها مجموعة من العلوم الأخرى (المعنى الثاني).وتعنى البلاغة (بالمعنى الأول) بدراسة النص من وجهة وظيفته الإقناعية، وحتى دراسة الوجوه الأسلوبية في النص تخضع لمبدأ التلازم بين الأسلوب الحجاج؛ فالمقاربة البلاغية للوجوه الأسلوبية معنية بما تحمله من أبعاد حجاجية[1] .

ومن هنا كانت فكرة العرض في مقاربة خطبة الحجّاج بعد "دير الجماجم" من منظور بلاغي حجاجي للوجوه الأسلوبية فيها، انطلاقا من مبدأ التلازم بين الأسلوب والحجاج.

<u>نص الخطبة:</u> خطب أهل العراق بعد دير الجماجم فقال:" يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى الأفخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً. أخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجركم إسلام، أو ينفعكم بيان. ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً . ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية، بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح وقصمكم الرماح. ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق، الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوة بعد النزوات. إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تبعتموه وآويتموه، ونصرتموه ورحبتموه. يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع ".

ثم التفت إلى أهل الشام فقال "يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب. يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء "[2]

المقصدية والغرض: قبل أن نتحدث عن الأسلوب، لا بد أن نشير إلى عنصر مهم من الناحية المنهجية في كل تحليل أسلوبي حجاجي وهو المقصدية. فقد توزعت أجناس الخطابة عند أرسطوبين حدد ثلاثة أجناس خطابية هي: القضائية والاستشارية والاحتفالية. غاية [مقصدياتها] الأولى هي الدفاع أو الاتهام ، وغاية الثانية نصح أعضاء جمع سياسي ما،وغاية الثالثة هي المدح أو الذم في محفل جماهري[3]. فالخطبة إذن تقبل النسبة إلى المقام الاحتفالي؛ لأن الخطيب يتوجه بخطابه إلى ذم أهل العراق "يأهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوة بعد النزوات".في مقابل مدح أهل الشام " أنتم الجنة والرداء".

غير أن ما يهمنا بالأساس في هذا العرض هوالوقوف على مبدأ التلازم بين الأسلوب والحجاج؛ أي المقاربة البلاغية للوجوه الأسلوبية بما تحمله من أبعاد حجاجية، والذي تتحقق عن طريق مجموعة من الأساليب والإنزياحات والمحسنات التي يعمد إليها الخطيب لإقناع المتلقي وحمله على الإذعان .وبالتالي التأكيد على أن الحجاج لا يعني حشد الحجج فحسب بل يعني كذلك جملة من الاختيارات الأخرى على مستوى المعجم والتركيب وأزمنة الأفعال وصيغ الكلمات وأنواع الصور ومصادر التصوير، واختيارات تراعي غاية الخطاب وتستجيب لعلاقة الخطيب بالمتلقي "**فالمتكلم بحكم وجوده في حظرة السامع يستطيع السيطرة عليه، ويمكنه جعل القول على قدر حاجته وصياغته على مقدار انفعاله به أو رغبته عنه كما أنه قادر على شد انتباهه حتى لايسهو عن قوله... وهو في كل ذلك يعضد اللغة ويسندها بالإشارة ويقوي قدرتها على الفعل والتأثير بالتلفظ وضروب المعونة من أساليب المبالغة والتأكيد والإستعارت**"[4] .فالخطبة التي بين أيدينا قائمة على علاقة تفاعل بين الخطيب والمستمع (أو بين الخطيب والمتلقي الكوني) وليست نصا معزولا . وإذا كان الأمر كذلك فالمناسب البحث عن البنيات الملحوظة في الخطبة وهذا ماينسجم مع أسلوبية الأثر عند ريفاتير. وليس الغرض منه - حسب مونان- التساؤل عن سبب التأليف بل عن اشتغاله (الأسلوب) وتأثيره في المتلقي وفيما يلي توضيح لهذ البنيات والأساليب وكيفية اشتغالها.

أسلوب الإستفهام: تنشأ الحالة العامة للسؤال من فراغ معرفي يسعى السائل من خلاله إلى ملئه مراهنا على اكتمال معرفة مخاطبه وقد يسعى المتكلم إلى معرفة ما إذا كان المتلقي يمتلك الإجابة أم لا كما هو الشأن في السؤال التعليمي يلقى لتأكيد فهم المتعلم للدرس، وقد يلقى لاستدراج المتلقي إلى الإدلاء بحقيقة يعلمها (الإستجوابات) .كما يلقى لأسباب أخرى من

تسلية (بين العشاق) ووضع حد للصمت وجلب الأنظار، أو التجريح أو التعريض أو لاستظراف المتلقي أو التأثير فيه. فهو "ذو قوة حجاجية تعادل ما في القيم والمواضيع المشتركة التي يتوسلها المحاج لحمل مخاطبه على الإقناع لما يقوله له أو استمالته والتأثير فيه باعتماد صنوف من الحيل لعل أهمها فنون إلقاء السؤال "[5].

ومتى نظرنا إلى خطبة الحَجّاج – قيد التحليل- يتبدى لنا أهمية هذا المظهر البلاغي داخل الخطاب الإقناعي الموجه إلى أهل العراق بضرورة الانصياع لحكم الحجاج .فجميع الصيغ التي قدم بها الاستفهام جاءت استنكارية ولم يكن الغرض منها انتظار الجواب. فقوله: "**ألستم أصحابي بالأهواز** "نستشعر أن الغرض منه كان استفزازيا/ استنكاريا/ توبيخيا متى تدبرناه في ضوء العلاقة بين الحَجّاج وأهل العراق المتسمة بالتوتر والنفور ورفض أهل العراق له من جهة، ومحاولته إخضاعهم لسلطته من جهة ثانية؛ والذي أراد من خلاله التأثير في المستمع بوضعه في صورة الظالم الذي يجب عليه تغيير سلوكه .كما نقف في الخطبة على شكل آخر من الاستفهام في قوله: "كيف تنفعكم تجربة أو تعضكم وقعة أو يجزيكم إسلام أو ينفعكم بيان؟" فهو الآخر استنكاري جيئ به على صيغة تقريرية إنشائية من حيت اللفظ الظاهر ،لكنه خبر من حيث المعنى المضمر ؛ أي أنهم لم يتعظوا بالتجارب والخطب ولا حتى الإسلام .فهو بهذا حاول أن يدفع المستمع إلى الإقرار بأحقية الحجاج بالخلافة عن طريق تخطيئ الذات (أهل العراق) مما يجعلنا نستنتج الطاقة الإقناعية للسؤال المبنية على الضمني لا المصرح به وهو الأمر الذي تعرض له ديكرو في إطار نظرية المساءلة؛ حيث بين أن الافترضات الضمنية في بعض الاسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوبا حجاجيا لأن أية إجابة مهما كان نوعها لابد أن تسلم بتلك الافتراضات بل تقر ضمنيا بصحتها. وهو الأمر الذي ركز عليه الحجاج في آخر الخطبة الموجهة لأهل العراق بصياغتها على شكل مجموعة من التساؤلات:"**هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه؟ .... هل شغب شاغب ،أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ ألم تهكم المواعظ،ألم تزجركم الوقائع ؟**"والتي تحمل مجموعة من الافتراضات الضمنية المتمثلة بضرورة إعادة التفكير في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسذاجتهم؛ فهي استفهامات تحمل اللوم والعتاب والتوبيخ كما تحمل الاستعطاف والتحصر على حالهم. فالخطيب إذن ساق المعلوم مساق غيره[6] لتحقيق الأغراض السالفة الذكر.

أسلوب النداء: وتتجلى وظيفته داخل الخطبة في التنبيه على المخاطَب من طرف المخاطِب. فهو إذن أداة التواصل بين الطرفين. ويشمل حرف النداء "يا" واسم المنادى "أهل العراق" (الذي يلي الأداة)، فرسالة الخطاب. وقد تكرر هذا الأسلوب داخل الخطبة خمس

مرات؛ أربعة منها موجهة لأهل العراق والخامسة لأهل الشام. فما الغرض إذن الذي قام به هذا الأسلوب في الخطبة .

بالإضافة إلى الوظيفة التنبيهية التواصلية الذي شكلت المكوّن الأساس لهذا الأسلوب، يمكن الوقوف على أغراض الرسالة التي تحملها كل صياغة على حدة.

وفيما يلي بيان لذلك:

- **يا أهل العراق إن الشيطان قد إستبطنكم...**

⟵ تنبه على الحالة التي وصلوا إليها من الكفر والجحود

- **يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات ....**

⟵ التنبه والتحصر على تصرفاتهم الطائشة

- **يا أهل العراق هل شغب شاغب....**

⟵التنبيه والتحصر

- **يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ....**

⟵ التنبيه والزجر والتأنيب والتوبيخ.

- **يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم**

⟵ التنبيه + التعظيم والتخصيص

والملاحظ أن الخطيب في خطبتة هذه لم يوظف الأدة "أيها" التي تحضر في الخطب بكثرة وتستعمل لنداء القريب، إنما اختار توضيف الأداة "يا" التي تستعمل لنداء البعيد، **ولا تستعمل للقريب إلا توكيداً**[7] على المعنى أو الرسالة التي يحملها هذا الأسلوب. وبالتالي نستنتج أن الغرض من توظيفها من قِبَل الحجّاج اتجاه أهل العراق توكيد يوحي ببعدهم عن قلبه واهتمامه. أما اتجاه أهل الشام فهو توكيد يوحي بقربهم من قلبه ومكانتهم الرفيعة عنده.

أسلوب الإلتفات: إن تحديد تعريف دقيق للإلتفات سيجعلنا نتخبط بين العديد من التعاريف المبتوتة في كتب البلاغة، قديمها وحديثها، كما يزيد من صعوبة هذه التحديدات اختلاف التسميات التي أطلقت عليه والتحديدات التي قدمت له. لكن هذا لا يشغلنا في عرضنا هذا بقدر ما أن الهاجس الأكبر هو إبراز أهميته البلاغية الحجاجية (الإقناعية) داخل الخطبة. فإذا كان في أعم التحديدات التي قدمت له هو "**نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب**"[8] واشترطوا في هذا الانتقال أن يكون **مخالفا لمقتضى الحال**[9]. والخطبة التي بين أيدينا تزخر بتنوع في هذا الأسلوب وبأشكال مختلفة[10] وفيما يلي بيان للغرض منه:

الإلتفات بين الضمائر: "أنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا" فانتقال الخطيب هنا من ضمير المتكلم المفرد إلى المخاطب الجمع لم يكن مجرد حيلة لغوية بل إنه يمثل صورة بلاغية تفيد تشكيل المعنى عند المتلقي وذلك باستحضار السياق الذي ركز عليه القدمى (ابن جني، السكاكي، ابن الاثير) في تدليلهم لهذا الاسلوب مجددين الغرض منه، وقد عد له ابن الأثير أهدافا عدة نذكر منها التوبيخ[11] باعتباره أثرا دلاليا حاول الحجّاج من خلاله التأثير على المتلقي "أهل العراق" لفرارهم منه وخداعهم له والتآمر عليه مع ابن الأشعث[12].فالتعبير بصيغة المخاطب تسمح للمتكلم الخطيب أن يواجه المخاطب (أهل العراق) بنوع من المكافشة والمصارحة واللتان تصبحان في هذا السياق أبلغ في الدلالة على تمرد أهل العراق، ولم تكن عودته إلى صيغة المتكلم المفرد إلا تأكيدا على قوته وانتصاره عليهم، فالتركيز على الذات هنا في مقابل الجماعة، افتخار لها وإبراز لشجاعتها. وبالتالي يجعلنا اسلوب الإلتفات في هذه الحالة نستشعر غرض الحجّاج في التأثير على نفسية أهل العراق من أجل تغير سلوكهم والانصياغ لحكمه.

الإلتفات بين صيغ الأفعال : ويتمثل في **الإخبار عن صيغة الماضي بالمضارع**[13] من أجل استحضار الصورة والمشاهد القديمة أمام المستمع فقوله **"تتسللون لواذاً وتنهزمون صراعاً"** حاول الخطيب أن يصور جحود أهل العراق واستمرارهم عليه عن طريق الاحتفاظ بصيغة المضارع من أجل الحديث عن أحداث وقعت في الماضي. فالخطبة بأكملها تقوم على هذا النوع من الإلتفات (خروج عن مقتضى الحال) والذي سعى من خلاله تصوير التوثر والصراع الذي يعيشه مع أهل العراق .

عموما يمكن القول بأن أغراض هذا الأسلوب كثيرة "تدل **على مكانته في علم المعاني وقدرته على التفنن في التعبير عن المعاني المختلفة"**[14].

أسلوب التكرار : أسلوب التكرار أو المعاودة أسلوب تابع في الخطابات على تنوع مواضيعها واختلاف أجناسها، ولكنه لا يدرس ضمن الحجج أو البراهين إنما يعد رافدا أساسيا يرفد هذه الحجج أو البراهين التي يقدمها المتكلم لفائدة أطروحة ما[15] أي أن التكرار يوفر لها طاقة مضافة تحدث أثراجليلاً في المتلقي وتساعد على نحو فعال في إقناعه أو حمله على الإذعان (المصطلح لعبد الله صولة) من طرف المخِاطب . والخطبة التي بين أيدينا تجعلنا نقف على أكثر من مثال، اللفظي منه والصوتي، أما اللفظي منه فـ**"يعد من أفانين القول الرافد للحجاج المدعم للطاقة الحجاجية"**[16] وقد ارتبط ارتباطا وثيقا بتكرار اسم المكان **"دير الجماجم"**(مرتين) واسم الزمان **"يوم الزاوية"**(مرتين)، وأسلوب النداء **"يا أهل العراق"** (أربع مرات). فتكرار اسم المكان "دير الجماجم" غايته التذكير والتهويل بهذا المكان الذي هزم فيه أهل

العراق؛ وبالتالي يكون وقعه شديدا على قلوبهم و أثره بليغا في الأسماع والأذهان. وهي الغاية نفسها من تكرار "أهل العراق" "ويوم الزاوية" بالإضافة لتحذيرهم وزجرهم من أجل إعلان توبتهم .

أما بخصوص التكرار الصوتي فهو كما عرفه "غارسيل يبيرا":"**تكرار لنفس الصوت أو الأصوات في نهاية الكلمات ،توجد في مواضع متقاربة جداًيكون تأثيرها التعبيري لافتا للأنظار .ويمكن لهذا التجانس أن يكون صامتيا أو صائتيا أو مركبا...[بينهما]**" [(17)] والشواهد في الخطبة كثيرة منها قول الحجاج:"**اتبعتموه آويتموه ونصرتموه وزكيتموه**" وقوله كذلك :**الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الختراتِ، والنزوات بعد النزوات**. يتضح من خلالها التجانس الصوتي ملتبسا بالسجع وهو دعم للصنعة الصوتية .فعناية الخطباء بالصناعة الصوتية مطلب يقتضيه المقام الخطابي الذي هو في الأساس مقام تأثير و استمالة .فاستنجاد الخطباء بالمقومات الصوتية والإيقاعية يأتي لمقاصد تداولية من أن إثارة انتباه مستمع التي لا تكون بالحجج أكثر مما تكون بتكرار لأصوات بعينها مثل قوله " **نفاقا وشقاقاً ،خلافاً ...قائداً ومؤامراً** " كما يمكن الوقوف على طاقته الحجاجية - التكرار الصوتي - في انتهاء كلامه بالألف الممدودة الذي ترمز إلى الإستعلاء وهو الأمر الذي تعززه وتشهد له القرائن السابقة (نفاقاً وشقافاً).

بالتالي يمكن القول أن التكرار بالإضافة إلى مايوفره من جرس موسيقي داخل الخطاب. فهو رافد من الروافد التي يعتمدها الخطيب لترسيخ أفكاره وما اهتمامهم واحتفالهم به – الخطباء- إلا وعي بأهميته كرافد إقناعي كما أقر بذلك الجاحظ.

أسلوب الوصف: يطالعنا هذا الأسلوب منذ بداية الخطبة من خلال تقديم وصف يعتمد بلاغة الإستعارة، وإيحائية المعجم، ورمزية التعبير من أجل وصف حال أهل العراق .وهو وصف أطنب الحجاج فيه، أراد من خلاله تقديم صورة دقيقة للحالة التي وصل إليها أهل العراق من الكفر والجحود وتعاملهم غير الإيجابي مع أئمتهم، وطابعهم البراغماتي، في الوقت الذي كان بإمكانه الاكتفاء بقوله (لقد أغواكم الشيطان). فما الغرض من هذا الوصف الاستعاري وهذا الإطناب؟ خاصة أن من خصائص الخطبة الإيجاز كما هو معلوم .

يقول أرسطو :"**والقوعد التالية تسهم في سمو الأسلوب من ذلك استعمال الوصف بدل اسم الشيء [...] والمجازات والصفات ابتغاء الإيضاح حرصا على تجنب ما هو مفرط في الشعرية**"[(18)]. إن الغاية التي يركز عليها أرسطو في الوصف هي الإيضاح. والذي سعى من خلاله الحجاج إلى إيضاح حالة أهل العراق؛ فليس استبطان الشيطان لهم إلا استعارة تصريحية عمد من خلالها أن ينسب فعل الاستبطان إلى الشيطان مشبها طيشهم وغلبته على منطقهم

كمن استبطن برداء عن الحقيقة. كما أن مخالطته للحم...وتعشيشه وتفريخه لم يكن سوى تشبيه لانقيادهم له وسلوكهم اللاإنساني وكأن الشيطان قد أنجبهم في الحقيقة، فهم ليسوا في نظره إلا فراخا باضها الشيطان.

استطاع الخطيب اعتماداً على هذا الوصف الاستعاري أن يقدم لنا نصا مضمراً ((مسكوتاً عنه)) مفاده أن طينة هؤلاء ليست طينة أدمية؛ وبالتالي فإن السلوك النموذجي معهم ينبغي أن يكون سلوكا من جنس عملهم.

هي إذن فكرة سياسية مغالطية لأمير يوظف أفانين القول الجميل لترسيخ أفكاره وأطروحاته السياسية التوسعية. ويمكن القول إذن أن الوصف رافد حجاجي، أو بصيغة أخرى فإن **الوصف تابع للإقناع**[19] غايته تمكن المعنى في النفس تمكنا زائدا.

السخرية: "ألستم أصحابي بالأهواز"، إن المتمعن لبنية هذا السؤال يتضح خلوه من أي محسن كيفما كان. وبالتالي نكون إزاء دلالة حرفية وسؤال يكون الجواب عليه بحسب حرفية ظاهر الجملة. لكن باستحضار المقام التخاطبي الذي قيل فيه، يجعلنا نتراجع عن تصورنا الأول ونقر بأننا أمام محسن فكري يدعى السخرية. فلولا الاستعانة بالمقام ونوايا الباث بل ونوايا المستمع لما فهمنا هذا المحسن الفكري بهذا الشكل. وبالتالي يمكن أن نعرفه باعتباره - المحسن- "**إبدال الفكرة المطروحة بفكرة اخرى توجد في علاقة معها**"[20] وبصيغة أبسط أن تقول الكلمات معنى عكس المعنى أو الواقع الذي تصفه، وهذا ما حدث في الشاهد الذي قمنا بتقديمه؛ فظاهر الكلام يقول شيئا ومعناه السياقي يقول عكسه. فهو استهزاء حاول الحجاج من خلاله التأثير في أهل العراق عن طريق اللعب بمشاعرهم والتشكيك في قدراتهم من أجل الإنصياع له .

أسلوب التخصيص و الحصر : لقد وظفه الحجّاج في خطبته عندما وجه خطابه لأهل الشام؛ ومعلوم أن أداة التخصيص "إنما" **تفيد الحصر والتخصيص وإيجاب الفعل**[21] اتجاه المقصور ونفيه عن غيره دفعة واحد، ف"إنما" تخصص هنا الأفعال بالحجّاج لأن المقصور يلي مباشرة الأدة، وغرضه إبراز اهتمام الحجاج بأهل الشام وتخصيصهم برعايته، فهذا المظهر البلاغي يؤكد الجملة ويقوي العلاقة بين جزأين من أجزاء الكلام وجعل أحدهما مخصوصا بالآخر ملازما له ولا ينطبق على غيره. فالقرآن إذا أراد مثلا تخصيص الألوهية لله. يقول: "**إنما إلهكم الله**" وقد جاءت هذه الآية في سياق الرد على المنكرين للوحدانية، فاستدعى المقام مثل هذا الأسلوب الذي يؤكد المعنى ويحسم الأمر حسماً نهائياً، وبالتالي يبرز لنا القوة الحجاجية الذي يتضمنها هذا الأسلوب، فالحجاج باستحضاره إياه كان واعيا باختياره وذلك لإثبات أحقيته بالحكم والوصاية من جهة، والرد على أهل العراق المنكرين للخلافة من جهة ثانية.

فالتأكيد على مساندة أهل الشام وانتصارهم له رسالة موجهة لأهل العراق المرتابين المشككين في نزاهة الحجاج؛ لان هذا الأسلوب يناسب عادة نوعا من المخاطبين يغلب عليهم الإنكار أو الشك أو عدم الاطمئنان إلى رأي معين .

أسلوب التوكيد: تختلف مواقف الناس عند سماع خبر من الأخبار وتتباين، وهذ يقتضي من المتكلم استخدام الأسلوب المناسب لكل مقام، فقد يلجأ في بعض الحالات إلى استعمال أساليب التوكيد لتمكين المعاني في النفوس وإزالة ما بها من شك أو نكار خاصة إذا كان المخاطب عالما بالخبر لكنه ينكره ويرده، ففي هذه الحالة لابد للبليغ من استخدام وسائل التوكيد المختلفة وذلك على قدر الأنكار، حتى يتحقق الإقناع ويسمى هذا الخبر الاستنكاري .

هذا الوصف الذي قدمناه لحدود الإنكار بين الباث والمتلقي هو نفسه الذي حاول الحجاج تقليصه مع أهل العراق محاولا إقناعهم والتأثير فيهم بأسلوب التوكيد الذي يطالعنا منذ البداية في الخطبة "**إن الشيطان قد استبطنكم**"؛ وهو خبر انكاري جاء بأكثر من أدة توكيدية (**إن– قد**) للتأكيد على مدى حجودهم وتمكن الشيطان منهم. مفصلا من خلال هذا الخبر دقائق النفس العراقية المتمردة على ولاتها .

أسلوب الاستعارة أو(الخطاب الاستعاري): رغم ما يطرحه هذا الأسلوب الاستعاري على المستوى التواصلي من صعوبات تشوش على الإدراك العادي لدلالاته، إلا أنه مع ذلك يبقى من قبيل الأقوال الطبيعية التي توظف لإبلاغ وإفهام الغير بما تحمله من معرفة. ورغم انحرافه عن التواصل اليومي العادي ومخالفته للمقتضى القيمي للمنطق، بجمعه بين المتناقضات واختلاف منطقوه عن مفهومه؛ نجده لا يقل إبلاغا عن الخطاب العادي وذلك بسبب تقيده بمقومات الكلام وأغراضه .

والشاهد الذي بين أيدينا "**عضَّكم السلاح**" لم تكن غاية الخطيب في هذه البنية الاستعارية استبدال كلمة "**حيوان مفترس**" بكلمة "**السلاح**"، بقدر ما يتعلق لديه الأمر بحالة دعوى يعتقد فيها اعتقاداً صادقا أن السلاح حيوان مفترس. وقصد دفع اعتراض مستمعيه بسبب ما في هذه الدعوى من لبس، عمد الخطيب إلى استدراج ومخادعة المستميعن، بناء على أن الاستدراج فيما يرى "ابن الأثير" شكل من أشكال " **مخادعة الأقوال التي تقوم مقام مخادعة الأفعال[...] في استدراج الخصم على الإذعان والتسليم**"[22].ومن مظاهر هذا الاستدراج الذي يراد به إقناع المستمعين؛ بأن شراسة السلاح لا تقل عنفا من شراسة الحيوان المفترس وذلك باستحضار الدليل (**عضَّكم**).

إن التعارض الحجاجي[23] القائم بين الخطيب ومستمعيه في البنية الإستعارية السابقة، يكشف لنا عن مدى قدرة الخطيب على أن يكثر من ذواته. فقد جرد من نفسه ذاتين

اعتباريتين، الأولى مظهرة تدعي المطابقة بين "**السلاح**" و"**الحيوان المفترس**" بناءاً على الدليل (**عضَّكم**) بوصفه مقوماً مشتركاً بين الطرفين. والذات الثانية مؤولِة[24] تنكر من خلال المعنى الحرفي للبنية الاستعارية المطابقة بين "**السلاح**" "**السبع**" .

وقد مكن الاستدراج السابق الخطيب، من إعمال المستمعين لعقله قصد تأويل المعنى الحرفي للإدعاء ، ومن تم الإقتناع بأن السلاح كالحيوان المفترس كلاهما عنيف وشرس؛ فهو في الحقيقة ابرازلقوة وشدة سلاح جنوده في وقعة دير الجماجم.

بيد أن تحقق هذا الإقناع يستوجب مرور المستمعين في استدلالاتهم العقلية بلحظتين: تهم الأولى استحضار مجموعة المقومات السياقية والمعرفية لدليل " **عضَّكم** " وما يحيل عليه من دلالات الشدة والعنف والشراسة...، فيما تهم اللحظة الثانية البحث عن مظاهر هذه الدلالات في فعل السلاح في الإنسان. وانطلاقا من الدليل السابق باعتباره وسيط المعنى الحرفي للإدعاء ومعناه الاستعاري الاستلزامي، يرمي الخطيب إلى أن يعقل مستمعوه عن طريق الاستدلال معنى ثانيا غير المعنى الحرفي للإدعاء. وفي هذا تكريس للتعارض الحجاجي بين الخطيب ومستمعيه، بناءاً على أن الاستدلال فيه دائماً طلب للبنية وللدليل اللذين يبرهن بهما على الإقناع .

وإذا وسعنا مجال البنية الاستعارية التي نحن بصددها ، ونظرنا إليها في السياق العام للخطبة؛ فإننا سنجدها بدليلها (عظَّكم) حجة كبرى تخدم نتيجة(مقصدية الخطبة). ويمكن أن نمثل هذه العلاقة الحجاجية على النحو الآتي:

حجة = [عظَّكم السلاح] ⟵ نتيجة = [الحجاج وجنوده أقوياء على اهل العراق].

يستفاد مما تقدم، أن الأسلوب الإستعاري يبقى من أهم أشكال الخطاب اللغوي ارتباطا بالمقام التخاطبي، ووسيلة من الوسائل اللغوية التي تتيح للمتكلم تحقيق مآربه الحجاجية سواء بالإستدراج أم المخادلة أم الإستدلال، كما أنه خطاب تفاعلي تتحقق داخله تعارضات حجاجية شتى. سواء بين الخطيب والمستمعين أم بين المعنى الحرفي والمعنى الإستعاري الاستلزامي.

أسلوب التشبيه :من الأساليب الأكثر استعمالا في فنون القول وأكثرها بلاغة وتوصيلا للمعاني المراد ابلاغها إلى الآخرين. كما انه قادرعلى إيراد المعاني الخفية في صورة جلية، وعرض للأفكار البعيدة بتعبيرات تجعلها قريبة. فضلا عما يلبسها من أثواب جميلة[25] فكلما كان التشبيه مقبولا طريفا ممتعا، أحدث استجابة لدى المخاطبين. فقد تحدث البلاغيون القدامى عن أغراضه، والتي تدل بأكملها على وظيفته الإبلاغية التأثيرية في توصيل المعاني إلى النفوس . نذكر منها بيان حال المشبه، وتأكيد التشبيه وتقريره في الذهن ... كما أشار المحدثون إلى

أغراض اخرى منه: حمل المخاطب على الإذعان بفكرة أو تحقيق قدر من المتعة الوجدانية والفكرية، أو إثارة عاطفة الطمع والرغبة في الأشياء، أو الخوف والحذر في النفس، أو المدح أوالذم، وشحد ذهن المخاطب وتحريك طاقته الفكرية...[26].

لقد كان هذا الأسلوب حاضرا في النص بقوة وبصيغته التقليدية الكلاسية. فليس قوله "كالإبل الشوارد " إلا تأكيداً على أصالته البدوية، فالصورة هنا منتزعة من البيئة الصحراوية؛ حيث إن هناك متسعاً مكانياً للشرود، وهو ما يخدم الوظيفة الإقناعية؛ فشرود الإبل عن أصحابها، وهُمْ أحق بها، كشرود الرعية عن وليها. فالتشبيه هنا جاء ليقدم صورة للشرود والتيه التي وصل إليها اهل العراق.

أسلوب الاقتباس: هو أن يتضمن الكلام شيأ من القرآن والحديث ولا ينبه عليه للعلم به[27].وغرضه تقوية الكلام للإقناع وتزينه من جهة الألفاظ والمعاني وتحسين ألفاظه ونظمه.

يمكننا أن نعتبر المعجم القرآني ومضامينه وأساليبه ووقائعه، النص المضمر في الخطبة؛ حيث يمثل القرآن الرافد الأساسي في هذه الخطبة ابتداءً من الفكرة الجوهرية في النص. فاستبطان الشيطان فكرة ترددت كثير في القرآن. بل الأكثر من هذا فقد استخدم جملا قرآنية بأكملها "**تتسللون لواذا**"[28] ، وأفكارا "**لايسأل المرء عن أخيه ولا يلو الشيخ على بنيه**"[29]. كما وظف أسلوب الاستفهام التهويلي القرآني تناصا مع الآيات الكريمة "**الحاقة ما الحاقة** "[30] و "**القارعة ما القارعة**"[31] في قوله "**يوم الزاوية وما يوم الزاوية**" و"**يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم**". منتهيا بالتناص السياقي لحدث رجوع المتخادلين عن الحرب " **نكص على عقبيه**"[32] في قوله **ونكوص وليكم عنكم.**

عموما يمكن القول أن اللغة تؤدي وظائف متعددة انطلاقا من المقام الذي تشتغل عليه، حيث تصبح اللغة موجهة لخدمة أغراض المتكلمين لتستبطن خطابا يتنوع بتنوع المخاطب المستهدف؛ ولأن مقام الخطبة مرتبط بالمدح والذم والوعظ ، فإن أنسب معجم يمكن أن يجعل مهمتها ناجعة، هو استرفاد لغة القرآن من طرف الخطيب، مازجا فيها بين السياق القرآني وسياق الخطبة، المبنية على هدف مسبق، بهدف جعل خطابه يرقى إلى خطاب القرآن.

إن حضور القرآن إنما هو في حد ذاته غاية، أساسها الإقناع، حيث يصبح القول القرآني حجة تمارس نوعا من العنف على المتلقي باعتباره مُسلِّما لخطابه، والخطيب يجيد فعل التمويه قصد الاحتيال على عواطف الناس.

المقابلة: موضع المقابلة: مصدر من مصادر الإستدلال الخطابي وتكون بين شيئين لتمييز الحق من الزائف إذ بضدها تتميز الأشياء وبنظائرها تعرف.كما تعرف كذلك بذكر الشيء ومقابله مع تعديد صفاتهما مما يسمح بتمييز النافع من الضار.

وهي القاعدة التي بنى عليها الحجاج خطبتة هاته، مقابلا بين صفات أهل العراق وصفات أهل الشام. التي أراد من خلالها استمالة المخاطب- أهل العراق- واقناعه بصواب موقفه مقدما العبرة والمثال بأهل الشام .

وإذا كانت المقابلة تعتمد مقدمتين فإنها تنتهي حتما إلى نتيجة تتولد عنها. وقد انتهى الخطيب من تلك المقابلة بين الحالتين إلى التحصر على ما آل إليه أهل العراق وتنبيهم إلى سوء حالهم، في مقابل الانتصار والرضى لموقف أهل الشام.

خاتمة: نخلص في الأخير إلى أن هذه الخطبة بغض النظر عن مكانتها الدعائية وبالرغم مما عرفت به، تعتبر مثالا حيا على تعايش جملة من الأساليب الحجاجية والتصويرية والتخييلية، وعلى عبقرية اللغة وطاقتها الإيحائية من جهة، ومهارة الخطيب الادعائية من جهة ثانية؛ فقد استطاع بشخصيته الفنية والسياسية أن ينقل لنا جملة من الواقع السياسي بصراعاته المختلفة عن طريق أسلوب خاص يصور الطابع البراغماتي لأهل العراق وذلك بتتبع لمكوناتهم البيولوجية والنفسية الذي فسدت بتمكن الشيطان منها. بالانتقال من أسلوب الخطاب التخييلي إلى الواقعي التقريري بأثقاله، فيشهده على وقائع بعينها، معتمدا بذلك إمكانات لغوية هائلة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز...

كما نجد استخداما واضحا للمحسنات من توازي وتكرار وجناس...التي أعطت للخطبة بعدا جماليا إقناعيا تأثيريا خالصا.

فالنص إذن ليس سوقا لأدلة ومناقشة لأحداث فحسب .وإنما هو بالإضافة إلى ذلك نص شاعري مليئ بالإيحاء والتخييل لغة ومعجما، أسلوبا، وإيقاعا خدمة للغرض الحجاجي في الخطبة، والتي تمتاز بانحسار دائرة التداخل فيها بن الخطيب والمستمع،إذ تكاد تنعدم فيها ما يصطلح عليه "بمساحة التفاوض" ؛ فهو نص تحريضي هجومي يعتمد هدم المخاطَب (أهل العراق) وتوجيه دائرة الخطاب توجيها حاذقا نحو البديل الإقليمي المتمثل في أهل الشام.

كما نخلص إلى أن المقومات اللغوية والمحسناتية، والإيقاعية، والبيانية الاستعارية، والتشبيهية، ليست مجرد أدوات تزينية، بل إنها مقومات حجاجية لا تقل أهمية عن القياسات الإضمارية وعن الشاهد والانفعالات والأخذ بالوجوه.

مراجع البحث وإحالاته:

1- محمد مشبال،" عن تحولات البلاغة"، مجلة بلاغات، ع:1، القصر الكبير، 2009 ، ص11

2- أحمد زكي صفوة ،جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة، المكتبة العلمية ، بيروت الكبعة الألى (د.ت)،ص293-294 ... بالنسبة للأمثلة داخل الخطبة سنكتفي يضغط على الإقتباسات دون ذكر الإحالة تجنبا لكترة الحواشي .لهذا قمنا بإرفاق نص الخطبة مع العرض

3-هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، ، نشأ في الطائف ثم التحق بجند عبد الملك بن مروان، وقد انكشفت مواهبه القيادية فولاه عبد الملك أمر عسكره، ثم وجهه إلى ابن الزبير في مكة فقضى عليه، وبعد وفاة بشر بن مروان ولاه عبد الملك العراق .وأما فصاحة الحجاج وبلاغته فقد شهد بها القاصي والداني، وهو يعشق الألفاظ الغريبة والأساليب المتينة وينفر من الأساليب المبتذلة، وقد استمر في ولاية العراق إلى أن توفي سنة 95 هـ

4- فرانسو مورو، البلاغة، (المدخل لدراسة الصورالبيانية، ت:الوالي محمد و جرير عائشة ، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي ، المحمدية ،1989، ص:6

5- الوجه والقفى، ص 136/135

6- ربريو نقلا عن:- عبد الله بهلول ،في بلاغة الخطاب البلاغي ،سلسلة بحوث ودراسات، التسفير الفني صفاقس،تونس ، 2007 ص:60

7-السكاكي نقلا عن: شهاب الدين محمود الحلبي(725هـ) ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، ت: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر (سلسلة كتب التراث) ، العراق ، 1980، ص 231

8-بن عيسى بالطاهر ، البلاغة العربية (مقدمات وتطبيقات) ، دار الكتاب الجديد ،يناير2008، (د.م) ، ص:90

9 - الزركشي؛ نقلا عن محمد مشبال البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن اجني) ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 2007،ص:135

10 - محمد مشبال، مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، الرباط،1993، ص:64

11 - انظر محمد مشبال في كتابيه البلاغة والأصول ص:134 ومقولات بلاغية :ص 60

12- حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، مرجع مذكور، ص:86

13- هو من قام بتحريض أهل العراق على الحجاج سنة83هـ في وقعة دير الجماجم فهزم فيها. وفر إلى فارس .فقتل نفسه بعد أن كان ملك الفرس سيلمه إلى الحجاج . فقام بإرسال رأسه إلى الحجاج

13-محمد مشبال ،مقولات بلاغية،مرجع مذكور،ص:65

14-حسن التوسل ألى صناعة الترسل، مرجع مذكور، ص:186

15- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-تونس ،2008.ص:168

16- نفسه، ص:168

17- محمد الولي، الإستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات، دار الأمان، 2005، ط:1، الرباط،ص:125

18- محمد الوالي ،مرجع مذكور، ص: 159

19- محمد الوالي ،مرجع مذكور، ص: 159

20،- محمدالوالي ، مرجع مذكور ، ص:159

21- نفسه ،ص:164

22- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، مرجع مذكور، ص: 174

23ابن الأثير، المثل السائر، ت: بدوي طبانة وأحمد الحوفي،ط:1 ، دار نهضة مصر، القاهرة ، 1973 ، ص205 المصطلح لطه عبد الرحمان

24- بن عيسى بالطاهر ، ص:32

25 - نفسه، ص: .230

26حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، مرجع مذكور،ص:.323

27سورة النور،الآية: 61 " قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره".

28- سورة عبس، الآية: 35/34 ، " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه".

29- سورة الحاقة .

30- سورة القارعة .

31- سورة التوبة